

افتتاح الدّعوة .. التّأصيل التّاريخيّ للدولة الفاطميّة

Iftitah Daaoua ... The historical rooting of the Fatimid state

أ. قدور طيفوري

جامعة أبو القاسم سعد الله - الجزائر 02

الجزائر

kaddour379@gmail.com

الملخص:

البحث إذن، يهدف إلى بيان موقعيّة كتاب الافتتاح في الفكر التّاريخيّ الاسماعيليّ على أنّه العهد الجديد للدولة الفاطميّة.

الكلمات المفتاحية: الامام، الفاطمية، الدعوة، السّتر، الكتمان، كتامة.

Abstract:

It might seem ,to historians, that the book, Iftitah Daaoua, or The Opening of the [Islamic] Call is a historical source ,only, for the Fatimite state and this is a classical view of the book. But modern approaches to history views it differently. It is now considered as a rich source to understand the writer ,himself and his works. In this regard, many Conferences were held to study the book in question especially in the writer's home country , Tunisia.

قد يبدو للباحث في التّاريخ أنّ كتاب افتتاح الدّعوة مصدر تاريخيّ للدولة الفاطمية وفقط غير أنّ الحقيقة غير ذلك، فالرّؤية الكلاسيكيّة كانت تنظر إليه كونه سجلاً حافلاً بوقائع وأحداث التّاريخ الفاطميّ، يحوي حمولة معرفيّة عن حقبة من حقب ذلك التّاريخ، أمّا الرّؤية الحديثة، فإنّها قد استجلت مكانم الأهميّة في شخص النّعمان وكتابات، ولذلك عقدت له ملتقيات في تونس الشّقيقة مسقط رأسه.

من أعظم تجلّيات العقليّة الفدّة للنّعمان، كتابه "افتتاح الدّعوة"، الكتاب الذي أخذ على عاتقه مسؤولية التّمكنين للدولة الفاطميّة تاريخيّاً، استطاع خلاله النّعمان إخراج الدّولة من طور الغموض الذي اكتنف بداياتها، إلى طور القداسة التّاريخيّة التي وسمتها في طور الدّولة، وفق فلسفة نعمائيّة فدّة.

الأخير- حيث ستكون النصرة يقوم "اسمهم مشتق من الكتمان"، وكان مستقره بإيكجان⁽²⁾.

تُصوّر لنا الكتابات التاريخية ذلك التّواصل والاستمرارية بين الدّعاة، فسياق الرّواية النّعمانيّة عن المسألة، يدلّ على ذلك، بينما توحى الشخصيات الكتامية - كأبي المفتش، وأبي القاسم الوردجومي، وأبي عبد الله الأندلسي - على تمكّن التّعاليم الإسماعيليّة منهم، وعن الجهود التي بذلها الدّعاة في المغرب.

مع نهاية القرن الثالث الهجري، انتصبت الدّولة الفاطميّة لحكم بلاد المغرب، على أنقاض الدّويلات التي سبقتها، هذا الواقع الجديد، أعلن عن حقبة تاريخيّة تلت مرحلة الدّعوة، وهي دور الدّولة.

جدير بالذّكر هنا، التّنويه بدور القبائل المغربيّة - لا سيما كتامة - التي لعبت الدور الأساس في التّمكين لعبد الله، حال صراعه مع الأغالبة، والقبائل المناوئة له، كتامة التي لم تدّخر جهدا في نصرة الدّاعي والمهديّ من بعده، وساهمت في إدارة الأقاليم جرّاء إخلاصها⁽³⁾.

النّعمان وقضيّة الشرعيّة التاريخيّة للدّولة

اعتمد مؤرّخو الدّولة الفاطميّة حال التّأصيل لدولتهم على العقيدة الشّيعيّة مجسّدة في أحاديث النّبي ﷺ، والقرآن الكريم من خلال التّأويل، والأحداث التاريخيّة مثل غديرهم وفي المأثور من أحاديث الإمام عليّ عليه السلام وجعفر الصّادق الهادفة إلى إثبات الإمامة للإسماعيليّة الفاطميّة إن تلميحا وتصريحا، وعلى تلك الشّاكلة تمّت صياغة تاريخ فترة السّتر، أكثر الفترات غموضا، لكن عند الانتقال إلى دور الدّولة، تمّت إعادة صياغة ذلك الفكر وترتيبه ضمن الأطر التي تمّ رسمها لمسيرة الدّولة -

The book, " Iftitah Daaoua "is a revelation of Naaman's genius .The book had a serious mission , then, it was written to support the Fatimi reign .The book could get the Fatimite state out of the obscurity to holiness and glory that marked it's history thanks to Naaman's incredible wit and unique philosophy.

This study , aims to cast light on the importance of " Iftitah Daaoua" for the Ismaaili historical thought which considered the book as as reference for a new era of the Fatimi reign.

Keywords: 'Imaam". Fatimi . Islamic Call. Discreetness. Kutama.

مقدمة:

يعود نجاح الإسماعيليين في بلاد المغرب، إلى المجهودات التي قام بها الدّعاة في مشارق الأرض ومغاربها، بدءا من الحلواني وأبو سفيان، وانتهاء بأبي عبد الله الشيعي، مهندس الملحمة المغربيّة، وبطل ذلك الطّور من الدّولة، فقد بعث جعفر الصادق -حسب روايتهم -الدّاعيين أبا سفيان والحلواني - المغمورين- سنة 145هـ/ 762م إلى بلاد المغرب، لنشر ظاهر علم الأئمة، لتبدأ بذلك مرحلة الحرث، تمهيدا لمرحلة البذر، التي سيباشرها الدّاعي فيما بعد⁽¹⁾.

كانت وجهة الدّاعي بلاد المغرب، وقد استطاع بفضل "المعلومات" أن يؤطّر اللحظة التاريخيّة، ويحتوي الواقع الجديد، الذي فرضته الجغرافيا - مجسدة في فجّ

كمسألة النسب الفاطميّ، و"ملء" الفراغ الذي تركته فترة السّتر، ثمّ بيان مكانة الدولة من خلال العناية الإلهيّة بالإمام والدّاعي على السّواء، فالتّأصيل رحلة للبحث عن الجذور والذّات في غياهب التّاريخ.

بدأت الفكرة تلك، مع القاضي النّعمان، حيث تمّ بناء التّاريخ الفاطميّ كما أُريد له أن يكون، بمعنى أنّه وُجّه الوجهة الرّسميّة انطلاقاً من الرّواية الإسماعيليّة، فالنّعمان قد كتب بذلك تاريخاً موجّهاً، نجح خلاله في إظهار قدرة الإمام على إدارة الأحداث، ورسم له بذلك صورة بطولية، وواضح ما يحمله عنوان كتابه الموسوم بـ"الافتتاح" من معانٍ تبدو بنظرنا قرائن وأبعاد تهدف إلى التّعظيم من شأن الدولة الفاطميّة، وبيان البعد السّريّ للدّعوة، هذا السّير الذي "سيستفتح" النّعمان ويفكّ "شيفرته"، باستقصاء حيثيات الرّزمان الأوّل لها، وكاشف عن الاتّجاه العام للكتاب، كل ذلك لإلباس الموضوع لبوس الشّرعيّة والقداسة، أقول الشّرعيّة التي ستكتب للدولة البقاء، والقداسة التي ستمنح الدّعوة العناية والقبول.

يُعَدّ كتاب الافتتاح أنموذجاً فريداً في مجال التّاريخ المحليّ، فقد جاء قاصّاً عن "الفتوحات" الإسماعيليّة، بالموازاة مع كتب الفتوح الأولى التي أرّخت لصدر الإسلام، فالنّعمان قد سعى جهده لتتبّع منجزات الإسماعيليّة انطلاقاً من أدب الفتوح، ضمن سياق التّمكن للدولة تاريخيّاً، عن طريق إعادة بناء الحادثة التّاريخيّة.

واكبت سرديّة التّاريخ الفاطميّ ممثلة في كتاب الافتتاح، مرحلة مهمّة من المراحل الفكرية من حياة الدولة، تلك المرحلة التي شهدت زخماً ثقافياً تمثل في عبقرية المعزّ الإمام الرّابع، وما ترتّب عنه من اهتمام

أقصد المشروع الفاطميّ - وأوكلت مهمّة جمع الثّراث إلى القاضي النّعمان، المشرّع الأوحد للتّاريخ الفاطميّ.

تماشياً مع التّأصيل النّصبيّ الدّيني، سحّرت الدولة الفاطميّة التّاريخ حكماً زمنياً في إثبات مشروعيّة حكمهم، وذلك - إضافة إلى تسخيرها في إثبات الإمامة - بتتبّع منابع الأولى للتّاريخ الفاطميّ، والوقوف على أهمّ المراحل التي مرّت الدولة بها، من الدّعوة إلى الظّهور، لإضفاء طابع الشّرعيّة التّاريخيّة على الدولة.

طرحنا الإرهاصات الأولى للدولة الفاطميّة، عديد الإشكالات مرّدها إلى طبيعة المرحلة السّرية، وتمحورت في مجملها على قصّة التّاريخ الفاطميّ الأوّل، فقد كان لزاماً على المؤرّخين الفاطميّين التّأسيس لدولتهم تاريخيّاً، على خلاف التّنظير الفلسفيّ الذي ازدهر زمن الدّعوة في المشرق، فبذلك خالط التّاريخ الإيديولوجيا الفاطميّة، خدمة للمشروع، وتحضيراً لانتقالها من الدّعوة إلى الدولة.

خلال تتبّعنا للّحظات الأولى لتلك المرحلة المهمّة من تاريخ الدولة الفاطميّة تبين أنّ بناء الأحداث التّاريخيّة تمّ على نسق مريب، يوحى بمدى حرص المؤرّخين الفاطميّين على التّمكن لدولتهم بإعادة كتابة التّاريخ على الوجه الذي يحفظ حقّهم في تزعم الأمّة، ولذلك أصبح لزاماً علينا بحث مسألة التّأصيل التّاريخيّ للدولة كمنهج تبنّاه مؤرّخو الدولة الفاطميّة وخصوصاً النّعمان، لغرض أهمّ من مجرد رواية للأحداث على غرار الطّبريّ وابن الأثير والمقريزي وغيرهم.

إنّ حركة التّأصيل هذه، أو محاولة إيجاد السّنند التّاريخيّ لحكم الفاطميّين، إنّما هي حاجة أملتتها الطّروف المحيطة بالدولة الفاطميّة من الدّاخل والخارج،

أراد النُّعمان في كتابي الدَّعائم والإفتتاح أن يثبت شرعية الفاطميين في الحكم، تلك الشرعية التي تأتت من خلال أجوبة الأئمة على أسئلة " العامة " حول الإمامة والأئمة⁽⁹⁾، ومن خلال المناظرات بين السنة والإسماعيلية، والتي غالباً ما كانت تنتهي "برجاجة" الأفكار الإسماعيلية⁽¹⁰⁾، وقد صوّرت المصادر السُّنية - ممثلة في المالكي صاحب الرِّياض - تلك المناظرات بما ينافي المصادر الفاطمية تماماً⁽¹¹⁾.

تدلُّ كتابات النُّعمان في الافتتاح على إهماله للجانب الروحي الباطني لفترة البستر، لما قد تنيره - ربّما - من إشكالات تتعلق بطبيعة الفترة التي تتطلب فكراً أكثر انفتاحاً وواقعية، وربّما لكونه لم يكن بحاجة للخوض في مسائل العقيدة والنسب، لثبوته بالنسبة إليه، ثمَّ إنَّ النُّعمان - ومن على شاكلته - قد أدرك أنَّه من الضَّروري إعادة بناء التاريخ الفاطمي حول القضايا الأصولية التي تلقى رواجاً في الأوساط البربرية، كأحاديث التبشير بالمهدي، حيث أُلّف كتاباً وسَمَّاه بـ "معالم المهدي" - الذي يبدو أنَّه قد كتب قبل الافتتاح - ، وسرد ما أُثير في أمر المنصور أحاديثاً وشعراً⁽¹²⁾، وبالوجه الذي يضمن لها قبول السُّلطة الجديدة في "العالم الجديد".

تميّز العهد الأوّل من التاريخ الإسماعيلي بالسرية التي اكتنفت حيثياته، فكان التّخفي ملازماً لحركة الدُّعاة، فضلاً عن الأئمة، وقد دلّت نصوص النُّعمان على ذلك من خلال حكاية العبد والأمة، فأبو سفيان والحلواني لما نزلا إلى أرض المغرب اشترى كلُّ واحد منهما أمة وعبداء، واشتغلا في زراعة الأرض، والعمل على "بسط ظاهر علم الأئمة"⁽¹³⁾، ومن ثمَّ التَّمويه على حقيقة الرّجلين،

بالعلم والعلماء، ذلك التّرف الفكريّ المؤيّد مرّده - على ما يبدو - إلى الفراغ الذي تركته الإرهاصات الأولى للدولة في شقيها العقديّ والسياسيّ، ولهذا كان لزاماً على مؤرّخي الدولة الفاطمية وصل الماضي بالحاضر.

إنَّ إشكالية التّاريخ للدولة الفاطمية، شكّلت أكبر العقبات أمام المؤرّخين على اختلاف طبقاتهم، لاسيما ما تعلّق بفترة الدَّعوة - كما أسلفنا - والرّواية الوحيدة التي اكتنفت الجزئيات، هي رواية القاضي النُّعمان، غير أنَّ ذلك لا يخلو من إشكالات تحوم حول الرّواية نفسها، فالنُّعمان لم يكن من الفاعلين في تلك الأحداث، ولم يعاصرها، بل إنَّه لم يذكر مصادره حتّى، فكيف تصبح هذه الرّواية مرجعية من أرّخ بعدها للدولة الفاطمية؟

تضافرت العوامل السّياسية والاجتماعية والاقتصادية في صنع الحدث التّاريخي الإسماعيلي، فاضطهاد آل البيت، والخطر القرمطي عاملان سياسيان مبرّزان لرحلة المهدي⁽⁴⁾، ووجود المؤازرين عامل اجتماعي مشجّع على السّير قدما نحو الأهداف، في حين شكّلت الأموال التي تصل الإمام عاملاً مهماً في التّكفل بمشاغل الدولة الأخرى.

ترتكز المبادئ الشّيعية عموماً، والإسماعيلية خصوصاً، على حبّ آل البيت⁽⁵⁾، وتأتت مشروعية ذلك الحبّ اعتماداً على تأويل آيات القرآن الكريم، على غرار الآية: "قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى"⁽⁶⁾، وأحاديث النّبي ﷺ، و"الأئمة" من بعده كمحمّد الباقر وجعفر الصّادق، وينجّر عن ذلك الأخذ بأقوالهم والافتداء بأفعالهم⁽⁷⁾، تلك الأقوال والأفعال التي لزمتهما صفة العصمة والعلم الوهبي الذي دلّت عليه أحاديث كثيرة مأثورة عن النّبي والأئمة من بعده⁽⁸⁾.

خلال أفعاله، وواضح من غير لبس اجتهاد النُّعمان في التَّدليل على صدق علم الإمام للغيب، وآنية الزَّمان والمكان لظهور الدَّولة.

بعث الإمام ابن حوشب وعليًّا ابن الفضل إلى اليمن ووجههما إلى "عدن لاعة"، ومع وفد الحجيج نزل ابن حوشب وعليُّ بن الفضل اليمن سنة 268هـ، وبقيَا يدعوان هنا مستتران إلى أن انتهى عهد السِّتر وظهرت الدَّعوة⁽¹⁷⁾.

تذكر المصادر أنَّ الإمام أرسل أبا عبد الله الشَّيعيِّ إلى الحسن بن حوشب ليتكوَّن على يديه استعدادا للمهمَّة الموكَّلة له، وأوصاه بامتنال أعماله، لتلائم الظُّروف - مرة أخرى - ويصادف حجُّ الدَّاعي حجَّ كتامة، وهنا يتبادر سؤال غاية في الأهميَّة هل كان هذا اللقاء صدفة؟ أم أنَّ القضية مرتَّبة؟ إنَّ تتبُّع تفاصيل الرواية يوحى أنَّ الأمر مدبَّر ومرتبَّ⁽¹⁸⁾، كيف؟ لا نملك أدلة، وإنَّما هناك قرائن تدعّم ما ذهبنا إليه، كوجود الشَّيعة المغاربة مع وفد الحجَّاج الكتاميين⁽¹⁹⁾، وهو ما يدلُّ على أن الأخبار كانت تصل بطريقة هرميَّة من القاعدة إلى القمَّة من دعاة المغرب إلى ابن حوشب منه إلى الإمام.

خلال رحلة الدَّاعي مع الكتاميين، كان الحوار الذي دار بينهم ينمُّ عن جفاء العلاقة بينهم وبين الحاكم الأغلب، وأنَّ السُّلطة الأغلبيَّة على قبيلة كتامة لا تتعدى التَّبعية الإسمية، وهو الفراغ الذي استغله الدَّاعي "ملئه" فيما بعد⁽²⁰⁾.

شكَّلت مهنة التَّعليم التي افتعلها الدَّاعي الأداة الفاعلة التي حرَّكت عواطف الكتاميين، فكتامة كانت تجل من كان لديه قدر قليل من العلم⁽²¹⁾، ويبدو أنَّ

وتعتبر تلك المرحلة بداية تسرُّب "المدِّ" الإسماعيليِّ للمنطقة.

وتحقُّن موسم الحجِّ لدخول ابن حوشب وابن الفضل اليمن، ودخول أبي عبد الله الدَّاعي بلاد المغرب، ينمُّ عن الطَّابع السِّري للحركة، فالإمام عندما أراد إرسال ابن حوشب إلى اليمن، آزره بعلي بن الفضل، هذا الذي جاء إلى قبر الحسين زائراً، الأمر الذي يوحى بأنَّ الأمور جرت على دراية قبليَّة، وترتيب مسبق.

تُعتبر اليمن قاعدة "الفتح" الخلفيَّة التي ارتكزت عليها الدَّولة الفاطميَّة في مشروعها⁽¹⁴⁾، وقد بدأت شرعيَّتهم - حسب القاضي النُّعمان - من لقاء ابن حوشب مع الإمام، وقد لفت انتباهنا اختبار الإمام لابن حوشب، وإشارة النُّعمان إلى انتقاله من الإثنا عشرية إلى الإسماعيليَّة، ليعطي بذلك للمذهب الإسماعيليِّ صبغة القداسة و"النَّجاة"، من خلال بطلان أمر غيبة الإمام الإثنا عشري عند ابن حوشب الذي لم يبذل كثير جهد في حكمه على "حماقة" المذهب الإمامي، وتحوُّله إلى الإسماعيليَّة^(*)، وتترى الأحداث بخروج ابن حوشب إلى نهر دجلة أو الفرات، ولقاء الإمام⁽¹⁵⁾، كلُّها قرائن توحى بالسِّيناريو الذي على نهجه بُني التَّأصيل التَّاريخيِّ للدَّولة، ويُستشف من خلاله مدى عبقرية النُّعمان في توجيه اهتمام المتلقِّي نحو الأهداف المسطرَّة.

ومن القرائن، تلك الأحداث الميثولوجية التي ربطت بين أفعال ابن حوشب - التي عبَّر عنها النُّعمان في الافتتاح بالنُّكت واستشهد بالكثير⁽¹⁶⁾ - وبين ما ورثه أهل اليمن من علم الحدّثان عن أخبار رسول المهديِّ، حيث بدا التَّطابق واضحاً، الأمر الذي سهَّل على العامَّة التَّعرُّف على ابن حوشب رسول المهديِّ من

الله الداعي معاً، إذ المدة لا تحتل ذلك⁽²⁶⁾، فهي أكبر، وهو ما يطرح عديد الإشكالات عن مصدر تشييع هؤلاء؟ وعن الضامن لاستمرار التشييع في ظل الفراغ الذي يتركه موت الحلواني وأبو سفيان؟

أحدثت قضية الحرت هذه، شرخاً كبيراً بين مؤرخي الفاطمية والسنة، فالمقريني يذكر أن الذي بعث الداعيين أبو سفيان والحلواني، هو ابن حوشب⁽²⁷⁾، بينما يكتفي ابن خلدون بالقول أن الذي بعثهما هم الشيعة دون تشخيص⁽²⁸⁾، والذي نميل إليه، ما ذكرته الدكتور بوبه مجاني، من أن ابن حوشب هو من بعثهما، لتطابق المدة مع واقع الأحداث⁽²⁹⁾.

الغريب، أن من جاء بعد النعمان، عمل على الإجتراح التاريخي، ولم يعمل عقله حتى في قبول الرواية من رفضها، خصوصاً إذا علمنا أن هؤلاء المؤرخين من أدوات التاريخ، ما ليس للقاضي النعمان.

وعلم الحدثان الذي اختصت به الإسماعيلية، كان متداولاً بين أهل إفريقية - حسب النعمان -، بل إن إبراهيم الأغلبي "كان يُعنى بعلم الحدثان"، وحاشيته كانوا أميل إلى التشييع⁽³⁰⁾، وقد استقدم أحد المتضلعين في هذا العلم، وأنباه عن قرب ظهور المهدي "على رأس السِّتِّ والتَّسعين"، مما يعني قرب زوال ملكه⁽³¹⁾.

شكّلت رحلة الإمام - من سلمية إلى بلاد المغرب - معاملاً هاماً في معادلة التأصيل للدولة، تلك الرحلة "المغامرة" التي هبّت لها كل ظروف النجاح، تبعها ملازمة التوفيق للداعي، من لقاءه بكتامة، وصولاً إلى "أرض البذر"، مما يوحي بأن التاريخ الفاطمي تاريخ صنعته الأقدار، فأحداثه مسترسلة أفقياً وعمودياً، استرسالا يُستشف منه بأن للعناية الإلهية مكان في

الداعي كان غاية في الذكاء وتقدير الأمور من خلال تبوء هذه المهنة.

غير أن المسألة أخذت بعداً سياسياً بعد وصوله إلى إفريقية، فصورة معلم الصبيان الودود، استحالت القائد عسكرياً محنكاً، ورجل السياسة الذي التفت حوله أكابر القوم فضلاً عن صبياتها.

استقينا من رواية النعمان ذكاء وبراعة الداعي الذي استبطن كتامة، ورأى ما كان قد سمع خلال الرحلة، وازداد ارتياحاً لهم لما كشف موقفهم من بشارات الحلواني وأبو سفيان⁽²²⁾، واستطاع أن يستثمر الزمن ويؤطر التاريخ، من خلال تقدير المواقف، واتخاذ القرارات الحاسمة في اللحظة المناسبة.

الفاطيون والجغرافيا المغربية

ضمن الإطار نفسه حاولت رواية النعمان في الافتتاح تصوير المغرب على أنه بلاد مهيئة لقبول المذهب الإسماعيلي ومن ثم الدولة، فقد كان أهل المغرب على المذهب الحنفي والمعتزلي، ولهم أخبار عن المهدي يروونها، مما يدل - حسب النعمان على بذرة التشييع فيهم مجسدة في الاعتزال⁽²³⁾.

وعقائد الشيعة متأصلة فيهم "روحياً" كحريث الجيملي وموسى بن مكارم وأبو المفتش والورفجومي والأندلسي، وهؤلاء ثمرة جهود الحلواني وأبو سفيان الذين أرسلهما جعفر الصادق سنة 145هـ⁽²⁴⁾، بل حتى النساء قد وصلوا إلى حد الدعوة كأُم موسى بنت الحلواني، هذه الرواية التي يبدو أنها لا تخلو من لغط تاريخي أثر على صحتها، ذلك أن المدة الزمنية بين "الحرت والبذر والحصاد"⁽²⁵⁾ طويلة جداً - 135 سنة -، فلا يعقل أن يدرك حريث وموسى الحلواني وأبو عبد

للمهديّ ولد إسمه أبو الحسن⁽³⁶⁾، ووُلد في الوقت نفسه المنصور للقائم، فالإمامة - حسب التقليد الإسماعيليّ - تكون للولد الأكبر، فمن المنطقيّ أن يستلمها القائم، ومنها إلى ولده المنصور، ولا غرابة ولا شك في النسب حسب الرواية.

بدخول الدّاعي إفريقيّة - مستقرّ الأغلبة -، بدأت مرحلة وضع أسس الدولة "الفاضلة"، فالتّعمان يذكر أنّ شيوخ القيروان استقبلوا الدّاعي وهنّأوه بالنّصر، "ووصفوا له رغبتهم فيه، وميلهم نحوه"، ممّا يوحي بمدى القبول الذي لقيه المذهب الإسماعيليّ، مجسّداً في صلاح الدّاعي، ووصفوا له مساوئ الأغلبة، الأمر الذي اغتنمه الدّاعي ليؤلّبهم على العبّاسيّين، الذين فوّضوا الأغلبة لحكم إفريقيّة⁽³⁷⁾.

استطاع الدّاعي ترتيب البيت الإفريقيّ أفقيّاً وعموديّاً، حيث أخرج العمّال إلى بلدانهم وأمنهم، كما أنّه حارب مظاهر الفساد في الدولة، فسكنت الدّهماء، وقويت المملكة⁽³⁸⁾.

بدأ تنفيذ المشروع الفاطميّ على الأرض بدايةً بالخطب، فقد ذكر التّعمان أنّ الدّاعي لما نزل رقّادة أمر بزيادة "حيّ على خير العمل" في الأذان، والصّلاة على فاطمة الزّهراء، والحسن، والحسين، وإسقاط صلاة التّراويح⁽³⁹⁾.

اتّجهت أنظار الدّاعي - بعد إسقاط الأغلبة - صوب البناء العموديّ للدولة، فولّى محمّد بن عمر المرورّذي منصب قاضي القضاة⁽⁴⁰⁾، وهي المهمّة التي أوكلت للتّعمان في طور الدولة، وولّى على القيروان، الحسن بن أحمد المعروف بابن أبي خنزير⁽⁴¹⁾، الذي ولّاه المهديّ على صقلية، فأخرجه أهلها لسوء سيرته، فأمر

الإهتمام بالإمام وداعيته، من خلال تسخير عنصرَي الزّمن والمكان في صالح الدّعوة.

والأمر الذي يُلفت انتباه القارئ خلال تلك اللّحظات، ذلك "التّواطؤ" الذي تعمّده عامل الرّملة، حيث أنكر أنّه رأى المهديّ - شفقة عليه -، وقد صوّرت لنا المصادر ذلك المشهد، بالشّكل الذي يوحي بأنّ عامل الرّملة كان على قناعة بالمذهب الإسماعيليّ، دلّ على ذلك نصّ اليمانيّ الذي يذكر فيه أنّ العامل "أخذ العهد"⁽³²⁾ عند فراقه. وتذكر رواية المقرئ الرّحلة مطابقة لرواية التّعمان، واتّسمت سرديّة أحداثها بالواقعيّة المجسّدة في التّمويه الذي افتعله الإمام، من خلال عودته "للكلب"⁽³³⁾، وكانت الرواية في أطوارها سرديّة، لا تقف على المحطّات التّاريخيّة، كما هو الشّأن في رواية التّعمان.

حظيت قضيّة النسب باهتمام الشّيعة عموماً، والفاطميّة خصوصاً، إذ هي الأساس الذي قامت عليه الدّعوة الفاطميّة، ونظرًا للعلاقة التي تربط بينها وبين الإمامة محور الفكر التّاريخيّ الفاطميّ، هذه المسألة المحسومة عند مؤرخي الإسماعيليّة - كما أسلفنا -، لم تخلُ من حملات التّشكيك والتّحفظ داخل البيت الفاطميّ نفسه، فالتّعمان كان قد عالج مسألة النسب بشيء من الغموض، ففي الوقت الذي أثبت النسب⁽³⁴⁾، لم يخف شكوكه حياله، عند معالجة أزمة الدّاعي مع المهديّ، وعند ولادة المنصور، فأحد نساء المهديّ رأت في تعيين القائم خلفاً للمهديّ، خروجاً للإمامة من "قصر المهدي" إلى "قصر القائم" بلا رجعة⁽³⁵⁾.

ويبدو أنّي - وبعد تمحيص النّص - بدا لي أنّه لا يشكّل طعناً في النسب، فالتّعمان يذكر أنّه قد وُلد

المهديّة⁽⁴⁹⁾، وكذلك فعل القائم الذي رفع الثّابّين من القبائل للعيش بجانب المهديّ في عاصمته، والمنصور فرض على أربعة عشر ألف بيت كتاميّ الإقامة في المنصوريّة، وفَرَّق وجوه كتامة على سائر البلاد، مكافأة لهم على مناصرتهم للدّعوة⁽⁵⁰⁾.

الظاهر أنّ الأئمّة كانوا يهتّمون بتعمير عواصمهم الجديدة، ويبدو أنّ الهدف الخفيّ هو الحرص على تكوين عصبيّة محيطة بالإمام، تضمن للدولة الاستمرار والبقاء، وسط المحيط المشوب بالتوتر والتّهديد بالحرب.

تمثّلت العصبيّة بداية في قبيلة كتامة، التي خدمت الدّعوة بإخلاص، وبعد فقدان هذه العصبيّة، ختم على الأئمّة البحث على عصبيّة بديلة، تمثّلت في الصّقالبة، وقبيلة زناتة، وانتهت التّحالفات باستمالة صنهاجة، واستغلال عدائهم لزناتة، ومع ذلك بقيت كتامة صاحبة الفضل في إقامة الدولة⁽⁵¹⁾.

لقد عادت سلطة التّعيين في مناصب الدّولة إلى الإمام بعد انتصاب الدولة، حيث اعتمد على الدّعاة والمخلصين في تسييرها، من خلال إسناد المهديّ ولاية إفريقية إلى غزويّة بن يوسف، والمغرب إلى مصالة بن حبوس، وولّى على تيهرت منيب بن سليمان المكناسي⁽⁵²⁾، ومن خلال تولية القائم لجوزر على بيت المال، وجعله سفيرا بينه وبين أولياءه⁽⁵³⁾.

تفرّغ المهديّ بعد انتصاب الدّولة إلى إرساء قواعدها، "حيث نظّم الدّواوين، وأمر باقتضاء الأموال، ونصب ديوان الكشف، وديوان الضّياع، وديوان العطاء"⁽⁵⁴⁾، هذه القضايا التي كُتب فيها الكثير.

عليهم عليّ بن عمر البلوي⁽⁴²⁾، وتوالى على مهمّة القضاء بعد المروزيّ، محمّد بن محفوظ القمّودي، وأفلح بن هارون الملوّسي، ومحمّد بن عمران النّفطي، وإسحاق بن أبي المنهال⁽⁴³⁾.

وضمن الإطار نفسه، أعطى الأمان للعامة، من خلال إشراك المعارضة في الحكم، ومحاربة الفساد، وإقامة العدل⁽⁴⁴⁾ الذي ناضل من أجله الإسماعيليّون ردّها من الزّمن.

من الإجراءات التي ترمز للسيادة الفاطميّة، إقامة الرموز الدّالة على وجودها، منها تلك المتعلّقة بضرب السيّكة، ونقش الشّعارات ذات الأبعاد الدّينيّة الدّالة على الاتّجاه العام للدولة، مثل "بلغت حجة الله"، التي طُبعت على وجه منها، وطبع على الآخر "بلغت حجة الله"، ووسم على الخيل "الملك لله"⁽⁴⁵⁾.

الملفت للإنتباه في ذلك أنّ الدّاعي لم يكتب اسم الإمام على السيّكة، ويرأي الدكتور بوبة أنّه راجع إلى كون الدّولة لم تنتصب بعد⁽⁴⁶⁾، وهو تبرير معقول بنظرنا.

حرص الدّاعي على إرساء مؤسسات الدّولة الفتيّة، فوزع العمال على الأقاليم، حيث ولّى دار السيّكة ابن القمّودي، وسماها "السّيديّة"، وعلى القيروان ابن أبي خنزير، وعلى مدينة القصر القديم، خلف بن أحمد أخو ابن أبي خنزير⁽⁴⁷⁾، وولّى أبا زكي تّمّام بن معارك الأجنبي على إفريقيّة بعد خروجه إلى سجلماسة⁽⁴⁸⁾.

وبعد انتصاب الدّولة تحت قيادة المهديّ، استمرت عملية تنظيم الدّولة أفقيّاً، فالمهديّ لما استقرّ بالمهديّة، شرع في تعمير المدن وتوزيع القبائل عليها، فلما قُتل أبو معلوم فحلّون الكتامي، أكرم عياله وأمرهم بالإقامة في

خاتمة:

الاندلس، بيروت، لبنان، 1983، مقدمة المحقق، ص 25، 26. بينما يرى محمد حسين كامل ان المرسل ابن حوشب: محمد حسين كامل: طائفة الاسماعيلية تاريخها. نظمها. عقائدها، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959، ص 23. ولم يجزم فيمن بعثهم الى بلاد المغرب. ويعزو ابن شداد بعث ابن حوشب الى الامام احمد بن محمد: انظر: المقرئ، الدين: المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي، ط1: دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص 67. ونحن نرجح رأي محمد حسين كامل كون ابن حوشب قد بلغه وفاة الداعين فارسل ابو عبد الله فمن غير الممكن ان يعيشا من سنة 145هـ الى 270هـ.

(2) النعمان: مرجع سابق، ص 289.

(3) بوبة مجاني: النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي،

ط1، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2009، ص 211.

(4) الدشراوي: مرجع سابق، ص 169.

(5) بوبة مجاني: مرجع سابق، ص 81.

(6) الشورى، الآية 23.

(7) النعمان: المجالس والمساربات، تح: الحبيب الفقي آخرون، ط1، دار المنتظر، لبنان، 1996، ص 45، 46. النعمان: شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار، تح: محمد الحسيني الجليلي، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، 1/ 99، 107.

(8) النعمان: المجالس، ص 89-98. النعمان: اختلاف اصول المذاهب، تح: مصطفى غالب، ط3، دار الاندلس، بيروت، 1983، ص 32، 31.

(9) النعمان بن محمد: دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام، والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، تح: اصف فيضي، دار المعارف، القاهرة، 1/ 1963، 20-45.

(10) النعمان: الافتتاح، ص 269. القرشي ادريس: عيون الأخبار وفنون الآثار، القسم الخامس والقسم السادس، نشره د محمد اليعلاوي، "تحت عنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 140.

(11) المالكي ابو بكر عبد الله بن محمد: رياض النفوس، في طبقات علماء القيروان وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح: بشير البكوش، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1994، 78/2-96.

(12) النعمان: الافتتاح، ص 3، 5. القرشي: مصدر سابق، ص 28-31، 47، 49.

(13) النعمان: الافتتاح، ص 26.

(14) النعمان: الافتتاح، ص 02.

(*) تنكر الدكتور بوبة مجاني اثنا عشرية ابن حوشب، وثبتت اسماعيليته بقرائن، بوبة مجاني: النظم، ص 72، 73.

تأسيسا على الذي سبق، يمكن القول أن التأصيل التاريخي للدولة الفاطمية، كرافد تاريخي، ومنهج اعتمده مؤلفوها - بدءا بالقاضي النعمان - إنما هو محاولة جادة لإثبات شرعيتهم في الحكم، انطلاقا من بيان الجذور العميقة لهذه الدولة، واستقصاء مختلف الحقب التاريخية التي مرت بها، مما يوحي بالدور الذي يلعبه الإمام في حركة التاريخ، ذلك التاريخ الذي ليس في حقيقته إلا تاريخ الإمام فقط، وهو الأمر الذي دلّت عليه "الرعاية الإلهية" للدعوة - حسب رأيهم -، من خلال تسخير عاملي الزمان والمكان في خدمتها، ثم انتصاب "الدولة الفاضلة" في محيط عدائيٍّ بامتياز دون أن تتقهقر.

حركة التاريخ - كما قعد لها الفاطميون - والتي عوّلت على الإمام في كلّ مراحل بناء الدولة من التنظير، إلى الثورة، فالدولة، وبذلك استطاعت الإسماعيلية أن تجد لنفسها مكانا بين الفرق الأخرى، بفضل عبقرية ودهاء الدعوة، ولم تكن لتنجح لولا جهد فلاسفة ومؤرخي الدولة، ومنهم القاضي النعمان ملهم الدعوة والدولة، الأمر الذي جعل الفكرة تستمر حيّة في أذهان الأتباع من دور الستّر ابتداء، إلى غاية الهدف المنشود ممثّلا في دور الدولة.

الهوامش:

(1) النعمان: كتاب إفتتاح الدعوة، تح: فرحات الدشراوي، ط2، ديوان

المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 26-29. للمزيد انظر:

فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب، ص 78. اختلفت الآراء بين المؤرخين حول من بعث الداعين اقوالا عديدة فيرى مصطفى غالب في تقديمه لكتاب راحة العقل ان الباعث محمد بن اسماعيل المكتوم: الداعي احمد الدين الكرماني: راحة العقل، تح: مصطفى غالب، ط2، دار

- (36) النعمان، المجالس، ص 543.
- (37) النعمان: مصدر سابق، ص 244، 245. ابن خلدون: العبر، 454/3.
- (38) النعمان: المجالس، ص 246. المقرئ: مصدر سابق، 63/1. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: ج.س. كولان، ليفي برونسفال، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983، 149، 150/1.
- (39) النعمان: الافتتاح، ص 249، 250. ابن عذاري: مصدر سابق، 151/1.
- (40) النعمان: مصدر سابق، ص 247.
- (41) ابن عذاري: مصدر سابق، 151/1.
- (42) ابن خلدون: مصدر سابق، 455/3.
- (43) بوبة مجاني: دراسات اسماعيلية، ص 19.
- (44) ابن عذاري: مصدر سابق، 150/1. بوبة مجاني: النظم، ص 151.
- (45) النعمان: الافتتاح، 250، 251.
- (46) بوبة مجاني: النظم، ص 152.
- (47) ابن عذاري: مصدر سابق، 151/1.
- (48) النعمان: مصدر سابق، 277.
- (49) ابن عذاري: مصدر سابق، 187/1.
- (50) القرشي: مصدر سابق، 176، 216، 467.
- (51) بوبة مجاني: مرجع سابق، ص 272، 273.
- (52) بوبة مجاني: مرجع سابق، ص 92-97.
- (53) ادريس القرشي: مصدر سابق، ص 252.
- (54) النعمان: مصدر سابق، ص 303، 304.
- (15) النعمان: الافتتاح، ص 05-09. القرشي: مصدر سابق، ص 59-70.
- (16) للمزيد حول هذه الاحداث انظر: النعمان: الافتتاح، ص 18-26.
- (17) النعمان: الافتتاح، ص 11، 15.
- (18) بوبة مجاني: النظم، ص 76.
- (19) النعمان: الافتتاح، ص 30، 34. الداعي إدريس القرشي: مصدر سابق، ص 83، 84.
- (20) بوبة مجاني: دراسات اسماعيلية، مطبوعات جامعة منتوري، قسنطينة، 2002، 2003، ص 8.
- (21) النعمان: الافتتاح، ص 36.
- (22) النعمان: الافتتاح، ص 41، 42. المقرئ: اتعاط الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، تح: جمال الدين الشيال، ط2، المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، 1996، 57/1.
- (23) النعمان: الافتتاح، ص 62. عن وجود التشيع في بلاد المغرب قبل الفاطميين انظر: محمد الطالبي: الاوضاع التي مهدت لقيام الدولة الفاطمية بالمغرب، ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية، الدورة الثانية، المهدية، 4-7 اوت 1977، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، 1981، ص 29، 35.
- (24) النعمان: الافتتاح، ص 26، 27. الداعي ادريس القرشي: مصدر سابق، هامش ص 84.
- (25) إبن فؤاد السيد: الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007، ص 114.
- (26) بوبة مجاني: النظم، ص 73، 74.
- (27) المقرئ: اتعاط الحنفا، 41/1.
- (28) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدئ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح و ضبط، خليل شحاتة، سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، 2001، 450، 451/3.
- (29) بوبة مجاني: النظم، ص 70.
- (30) النعمان: الافتتاح، ص 59-73. الداعي ادريس القرشي: مصدر سابق، 84.
- (31) النعمان: الافتتاح، ص 62-77.
- (32) محمد بن محمد اليماني: سيرة الحاجب جعفر بن علي، وخروج المهدي من سلمية ووصله إلى سجلماسة، وخروجه منها إلى رقادة، تح: و. ايفانوف، ط4، مجلة كلية الآداب، مصر، 1936، ص 110.
- (33) ابن خلدون: مصدر سابق، 452/3. المقرئ: مصدر سابق، 61/1.
- (34) النعمان: مصدر سابق، ص 05.
- (35) النعمان، المجالس، ص 542، 543.